صورة من الحياة :

قلب أب!

للأستاذ كامل محمود حبيب

— ٢ —

...وتبعتكم — ياصاحبي — بعبراتي ، وأنا إذ ذاك صبي مغلول اليد واللسان ، فرأيت أطفالا ثلاثة شردتهم القسوة ففزعوا عن دار أبيهم في ذلة وانكسار ، وقد هدم الأسى وأضناهم الحزن وأرهقهم الجوع ، على حين قد سمت نفوسهم العالية عن الشكوى وتأبت نوازعهم الرفيعة على الضيم

وترفعت رجولة الطفل فيك عن أن تنقض أحزان قلبك بين يدى أى رجل من ذوى قرابتك، لأنك في نفسك فوق كل رجل قدرة ويساراً ، وأنفت من أن تتحدث بالحادثة الوضيعة لواحد من أهلك خشية أن تحطم كرامة أبيك أو أن تضع من كبريائه . فمشت ساعة من زمان تتخبط في تيه من الأفكار المضطرمة لا تهدأ ولا تهتدى ، ثم دفعك عقلك الصغير إلى العزبة التي خلفت لكم أمك ، وهي على خمسة أميال من القرية ، فانطلقت إليها — في صحبة أخويك — تقذ السير كأنما كنت تهرب من شبح مخيف يتقصص أثرك . . شبح القسوة التي حرمتك الطعام أحوج ما تكون إليه

اليوم صائف تلتهب وقدته ، ويتوهج أواره ، وتتضرم هواجره ، وأنت على الطريق لا تستشعر لذة الفيء ولا هدوء الراحة، تطوى السبيل في عزم وشجاعة ، يصيبك البهر والتعب فلا تنكص ولا تستسلم ، وهمتك تدفعك إلى الغاية ؛ وأنا أتبعك بعبراتي ؛ وأبوك هناك على السرير يغط في نومه ، يستجم من عناء ويستريح من نصب ، لا يحس شيئاً مما تجد أنت وأخواك

وبلغت العزبة ، غير أن الأقدام الصغيرة الناعمة كانت قد دمغها الطريق الوعر الطويل بعلامات ما تزال مرتسمة هناك تذكرك بهذا اليوم ... باليوم الأغبر

وهذا الوجه البض الرقيق كان قد زفرت عليه الهاجرة فصبغته بلون قرمزى يشهد بأن القسوة أخت القتل

وهذه الطفولة الغضة اللينة كانت قد تهالكت من أثر الجهد والعناء ، وتضعضعت من طول الضنا والنصب ؛ غير أنها استحالت عند نهاية الشوط إلى صلابة رجل شديد يصارع فيغلب ويناضل فيصبر .

وهبطتم العزبة التي تركت لكم أمكم لتأمر في صوت رقيق فيه رنات الطفولة ، ولكنك كنت تجهد أن تنفث فيه من صرامة الرجل وخشونته ، وأنت ما تزال صبياً لم تبلغ بعد سن الشباب

ورأى الفلاحون الذين غمرهم فيض أهلك ، ولبسوا ثوب النعمة من سخاء أبويك ... رأوا أبناء سيدهم يتكففون من أثر الابن والضنا، وعليهم سمات الأسى والضيق، فنظروا ثم أطرقوا . وأطرق من بينهم شيخ كبير وهو يقول «لا حول ولا قوة إلا بالله» ثم تتابعت على خديه عبرات حرى لم يستطع أن يكفكفها ولم يستطع معها صبراً ، فطار إلى ناظر العزبة يخبره خبر الصبية الأثرياء الذين أرغموا على أن يقطعوا الأميال الطوال سيراً على القدم، والحر ينضج جلودهم ويؤذى عيونهم ويرهق جلدهم؛ الصبية الذين ذاقوا — على حين غفلة — مس الجوع والقسوة والتشرد

جاء ناظر العزبة مهرولا يخب في ثوبه الفضفاض ، واندفع نحو الصبية يربت على أكتافهم في رقة وحنان . ولا عجب فلقد كان هو — منذ زمان — طفلا نبذه أبوه فما يسيغ عليه بعض عطفه، ودعته زوجة أبيه عن الدار التي ولد فيها فما تفيض عليه بلقمة ترد من سغبه ومن ذلته . ولكنك — يا صاحبي — ترفعت عن أن تستشعر روح الطفولة في وقت الشدة ، فدفعته عنك في قوة فارتد وفي عينيه عبرات . ثم انتحيت ناحية تأمر بصوت أجش خشن « أنا الآن هنا سيد هذه العزبة ! » فقال الرجل « نعم ، يا سيدى ، ومن قبل » . ورحت تأمره وهو يحاول أن يستشف

جملة الخبر من بين ثنايا طفولتك التي لا تعرف المكر ولا الخداع ولكنك كتمت عنه الحديث خشية أن تحطم كرامة أبيك أو أن تصدع من كبريائه

يا بجيا لهذه الرجولة الباكرة ! إن صفعة واحدة من صفعات القسوة الجافية قد خلفت منك - يا صاحبي - رجلا في إهاب طفل

وأقبل الليل ، فاستسلمت - في وحدتك - إلى خواطر هادئة لطيفة ، والأفكار الحالمة تداعب روحك لأنك تستنشق روح الحرية والراحة ، وبدا لك أنك نفضت عهد الإسار والخضوع ، عهد الحاجة والطلب ، عهد الطفولة المقيدة بأغلال الأبوة الطالمة ، وتراءى لك أنك أصبحت سيد هذه العزبة وسيد هذه الدار وسيد هذا القوم ، وأنك تأمر فيخضع الصغير وتنادى فيلبي الكبير ، وأن قلبك قد ملأته السيطرة وأن جيبك قد أفعمه المال. ولكن نفسك لم توسوس لك بأن تندفع في شهوة وضيعة ، ولا أن تسعى إلى لذة تافهة ، ولا أن تنغمر في زرق طائش ، لأنك نشأت في بيت فيه الدين والورع فانصرف قلبك عن الغواية وتحولت نوازعك عن المجون

وعشت ساعة في خواطرك الجميلة الهادئة ثم غلبك النوم

يا للطفولة البريئة ! لقد نسي الصبي - حين شعر بالهدوء والراحة - أنه يعاني محنة ضخمة عاتية ، نزلت به على حين فجأة فأفزعته عن أبيه وعن أهله وعن داره في وقت معاً. لقد نسي ما حواليه فاستقر في طفولته البريئة الصافية يحلم ويبتسم

أما في القرية فماذا كان هناك - يا صاحبي ؟

كادت أستار الليل تنسدل فتلف أرجاء القرية في الظلام والسكون ، وأبوك في شغل لم يجد فقدك ، ولم يحس وقع القسوة التي ضربك بها منذ ساعة. وأنى له أن يفعل وهو يراك لا تطمئن - أبداً - إلى الدار إلا حين يصيبك النصب والجهد من طول اللعب والجري ، ثم هو قد أمر زوجته أن تمسح غلطته فترسل إليكم الطعام الذي رفعه من بين أيديكم ولكنها أبطأت وتراخت . انسدلت أستار الليل والدار خالية من عينك حاوية من لهوك وضجتك ، فشعر أبوك بأنك لست هنا ، فأرسل من يفتش عنك في أنحاء القرية وجلس هو إلى نفسه وقد تيقظ ضميره وتقلب قلبه ...

وتراءى إلى خالتك أن أباك قد قسا عليكم قسوة أفزعتكم عن الدار ، وأن الدار قد لفظتكم إلى حيث لا يعلم إنسان

وصرخت خالتك من هول الخبر صرخة اهتزت لها أركان الدار ، ثم اندفعت إلى الشارع حاسرة الرأس [illegible] وهي تصرخ صراخاً فيه الفزع والرعب ، صراخاً يتحدث عن أسى الأم فقدت بنيها الثلاثة دفعة واحدة . اندفعت السيدة التربية التي لم يرها الشارع منذ أن كانت طفلة إلا من وراء حجاب ... اندفعت إلى الشارع عارية الرأس حافية القدم ، لم يستطع واحد من أهلها أن يردها عن الغاية التي تريد . ودخلت خالتك بيت أخيها - خالك - تفزعه بالنواح وتستحثه بالأسى ؛ وهو من بيت فيه السطوة والجاه ، وفيه السلطان والثراء ، وفيه القوة والشهامة وفيه الكرم والدين ...

وارتجت القرية كلها لما كان فانساب سيل من أهلك إلى داركم يستجلي الخبر وينحى باللائمة على أبيك الذي نسي أبوته ساعة من زمان ، على حين قد صنعت أنت بكرامته أن تخدش ، وصنت كبرياءه عن أن تتضع

ودخل خالك داركم وقد أربد وجهه واضطربت أعصابه وحبس الغضب لسانه ... دخل وهو يعجب مما سمع ، وفي رأيه أن أباك رجل عقل ودين لا ينحط أبداً إلى هذه الهاوية

دخل خالك الدار التي لم يدخلها منذ أن ماتت أخته الصغيرة العزيزة - أمك ، دخلها هائجاً يهدر ، فبدت له صورة أخته الصبية الشابة وهي تضطرب في أرجاء الدار جميلة نشيطة جذابة ، فاستحال غضبه إلى حزن عميق يخز قلبه وخزات قاسية. ولكنها الآن تبدو في خياله لكي تفزعه بالنواح وتستحثه بالأسى ؛ فاستشاط غيظاً وثورة

فماذا كان منه - يا صاحبي - وماذا كان من أبيك !

كامل محمود حبيب